﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١﴾ [طه: 19 - 21]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لمَّا قال موسى عليه السلام: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾؛ أمره اللهُ بإلقاء العصا؛ ليُعْلِمَه أنَّ فيها ما لا يَفْطَن له وما لا يَعْرفه، وأنّ ما خفي عليه مِن مآربها وأسرارها أعظمُ ممَّا قد عرفه وتفطّن إليه؛ وكذا ليكونَ توالي الكرامات سببًا لزوال الوحشة عن قلبه؛ ولمَّا كانت عادةُ الإنسان الانشغالَ بالأشياء؛ أمره سبحانه بإلقاء العصا كما أمره من قبل بخَلْع النَّعلين؛ ليشعرَه سبحانه بجلال الموقف وهيبته، وأنّه مَن كان في حضرة مولاه؛ لا يُشْغَل بما سواه[1].

من كان في حضرة مولاه؛ لا يُشغَل بما سواه

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَيَّةٞ﴾: الحَيَّةُ: الحَنَش المعروف، واشتقاقها منَ الحياة، وتكون للذَّكر والأُنثى، وإنّما دخلتْه الهاءُ؛ لأنَّه واحد من جنس، كبطَّة ودجاجة، وتجمع على حَيَّات[2].

2) ﴿سِيرَتَهَا﴾: السَّير يَدُلُّ على الذَّهابِ والمُضيِّ في الأرض نهارًا وليلًا، أمَّا السُّرَى فلا يكون إلَّا ليلًا، تقول: سار يسير سَيرًا ومَسيرًا ومَسيرَةً: ذهب[3]، وأصل (سير) يدل على مضيّ وجريان[4]، والسّيرة: الطَّريقة في الشَّيء وفي السُّنّة، والسّيرة أيضًا: الهيئة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾[5].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 204.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حيي).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (سير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سير).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يثبِّت الله الأنبياء بالبراهين، ويؤيِّدهم بخوارق القوانين

في هذا الاستئناف القرآنيِّ يبيِّن المولى ﷻ أنَّه لَمَّا ذكر موسى عليه السلام منافعَ العصا المتعدِّدة، أمرَه في هذه الآية بنبذها وإلقائِها؛ ليريَه معجزتَه فيها، فقال سبحانه: ألقها يا موسى، فطرحها عليه السلام، فإذا بها قد تحوَّلت بقدرة الله تعالى إلى ثعبان عظيم يتحرَّك ويمشي بسرعة من مكان إلى آخر، فلمَّا رآها موسى ولَّى هاربًا، فثبَّتَ اللهُ فؤادَه وطمأن نفسَه فقال: خُذْها يا موسى بيمينك غيرَ خائف منها؛ فإنَّا سنردُّها بقدرتنا إلى هيئتها وحالتِها الأولى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل قوله: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾:

عجائب الله تعالى لا تُعدّ، وقدرته سبحانه لا تُحدّ

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾ عن سابقه باعتباره استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤال ينساق إليه الذِّهنُ، كأنَّه قيل: فماذا قال ﷻ؟ فقيل: قال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لترى من شأنها ما ترى، ممَّا لم يخطر ببالك منَ الأمور[2]، فبين الآية وما قبلَها شِبهُ كمالِ اتّصال.

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

يتودَّد الله تعالى إلى أوليائه، ويُقرِّب إليه صفوةَ أصفيائه

الضَّمير المُستترُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾ عائدٌ إلى الله تعالى، على طريقة الالتفات منَ التَّكلُّم الذي في قوله سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وقد دعا إلى الالتفات وقوعُ هذا الكلام حوارًا مع قول موسى عليه السلام: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ الآية[3].

دلالة الأمر في قوله: ﴿أَلْقِهَا﴾:

أراد الله تعالى أن يُريَ كليمَه عجيبَ قدرته، وعظيمَ حكمته

الأمر في قوله تعالى: ﴿أَلْقِهَا﴾ على بابه؛ إذ هو طَلَبُ الفعل على جهة الاستعلاء، وإنَّما أمر اللهُ تعالى نبيَّه موسى عليه السلام بإلقاء العصا؛

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 269 - 270، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 96 - 97.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 491، والبروسويّ، روح البيان: 5/ 375.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.

لأنَّه ﷺ أضافها إلى نفسه بقوله: ﴿عَصَايَ﴾، فأراد الله تعالى أن يقطعها عنه، ويريَه الخارقَ بعد إخراجِه من سلطانه وتدبيره؛ ليعلمَ أنَّه بمحض صنع الله، لا دخل فيه لفعل العبد[1]، ويتَّضحُ بهذا الأمر أنَّ السُّؤال كان ذريعةً إلى غرض سيأتي، وهو القرينةُ على أنَّ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ مستعملٌ في التَّنبيه إلى أهميَّة المسؤول عنه[2].

سرُّ الإضمار والإظهار في التَّعبير عنِ العصا بين: ﴿أَلْقِهَا﴾، و: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾:

للعصا مآرب دعويَّة، ودلائل على القدرة الإلَهيَّة

جاء التَّعبير عنِ العصا هنا بالإضمار؛ لتقدُّم ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، فلمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُريَ موسى ﷺ جانبًا من قدرته في تحويل العصا التي قال عنها موسى ﷺ: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ إلى حيَّة ذات حياة كاملة قال: ﴿أَلْقِهَا﴾، فالضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَلْقِهَا﴾ يعود إلى العصا؛ أي: ألقِ ذات العصا التي بيدك، وهي العود منَ الخشب، فانظر كيف ينقلب ذلك العود إلى مخلوق آخر[3]، أمَّا في سورة الأعراف [117] والنَّمل [10] والقصص [31]، فلم يتقدَّم للعصا ذِكرٌ حتّى يشار إليها بضمير يعود عليها.

بلاغة الإطناب بتكرار النِّداء في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

في تكرير النِّداء إيناسٌ وإدناء وتشريفٌ وإعلاء

في تكرير النِّداء تأكيدٌ للتَّنبيه والاهتمام بشأن العصا[4]، كما أنّ فيه إيناسًا لموسى ﷺ[5]، وإدناءً إليه، وتحبُّبًا له وتقريبًا[6].

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 425.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4714.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 491.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4714.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾:

يبادر الأصفياءُ إلى تنفيذ أمر الله ذي الجلال، دون تلعثُم أو جِدال

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ للتَّرتيب والتَّعقيب والسُّرعة؛ أي: فتسبَّب عن هذا الأمر المُطاع أنَّه ﷺ ألقاها ريثما قيل له: ﴿أَلْقِهَا﴾، ولم يتلعثم[1]، وفي هذا دليلٌ على سرعة إجابة موسى ﷺ أمرَ ربِّه ﷻ، فلم يفكِّر في الأمر، ولم يسأل عن العِلَّة.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾:

إذا أراد اللهُ شيئًا فإنَّما يقول له كن فيكون، فأنَّى يُلْحد المبطلون

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ عاطفة[2]، وقد أفادت مع ما بعدَها سرعةَ تحوُّلِ العصا إلى حيَّة، وأنَّ ذلك لم يستغرق وقتًا، بل كان سريعًا مفاجئًا دالًّا على عظيم قدرة الله تعالى.

دلالة التَّعبير بـ﴿فَإِذَا﴾ الفجائيَّة في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾:

انقلاب العصا من جماد إلى حيوان كان كلمح البصر، مُدهشًا للبشر

﴿فَإِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ للمفاجأة، وكانت المفاجأة في أنَّها تحوَّلت من خشب جامد إلى حيٍّ متحرِّك[3]، وقد أفادت سرعةَ حصول ذلك، وكأنَّه كان كلَمحِ البصر، أي: صارت العصا في الحال حيَّةً عظيمة[4].

نُكْتةُ التَّعبير بالضَّمير المنفصل ﴿هِيَ﴾:

سبحان مَن يجعل الجماد حيوانا، ويخلق من الطّين إنسانًا

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: في الحال ظاهرًا وباطنًا[5]، حيثُ خرجتِ العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى ﷺ، فلم تَعُد للتَّوكُّؤ والهَشِّ على الغنم[6]، فقد تحوَّلت العصا الملقاة من يد موسى ﷺ حيَّةً كبيرة، سريعةَ الحركة بفعل الله ﷻ القادرِ على خَرْق العوائد، فقلب تعالى أوصافَها وأعراضَها، وكذلك عادت الحيَّةُ عصا إلى حالتها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 491.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 175، ومحمود صافي، الجدول: 8/ 358.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4714.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 279، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(6) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9252.

الأولى بفعل الله تعالى، وكلُّ ذلك كان معجزةً لموسى عليه السلام، وبرهانًا حسّيًا قطعيًا على نبوَّته، فالحاصل: أنَّ التَّعبير بالضَّمير ﴿هِيَ﴾ ليدلَّ على أنَّ العصا بنفسها قدِ انقلبت حيَّة بقُدرة الله تعالى، فلم تكن في حالتها العَصَويَّة حيَّةً، ولا كانت في حالتها الثُّعبانيَّة عصا.

لطيفة انقلاب العصا حيَّة:

يثبِّت الله قلوبَ أنبيائه في دعوتهم ومواجهتهم لأعدائه

في وجه الفائدة في إظهار هذه الآيةِ لموسى عليه السلام ليلةَ المخاطبة لطائف؛ **إحداها:** أنَّه تعالى قَلَبَها حيَّةً لتكون معجزة لموسى عليه السلام يَعْرف بها نبوَّةَ نفسِه، **والثَّانية:** تأنيسُه بهذا المعجز الهائل؛ لئلَّا يخافَ منها إذا ألقاها بين يدي فرعون، فلا يلحَقُه ذُعرٌ منها في ذلك الوقت، إذ قد جرت له بذلك عادةٌ، وتدريبُه في تلقّي تكاليفِ النُّبوَّة ومشاقِّ الرِّسالة[1]، **والثَّالثة:** ليريَه أنَّ الذي أبعثُكَ إليه دونَ ما أريتُكَ، فكما ذلَّلْتُ لكَ الأعظَمَ وهو الحيَّةُ، أُذلِّلُ لكَ الأدنى[2]، **والرَّابعة:** أنَّ النِّداء كان إكرامًا له، فقَلْبُ العصا حيَّةً مزيدًا في الكرامة؛ ليكون توالي الخُلَع والكرامات سببًا لزوال الوحشة عن قلبه[3].

الغرض من تنكير ﴿حَيَّةٌ﴾:

آيات الله عظيمةٌ، وآلاؤه جسيمةٌ، وقدرتُه لا تُحاط

أفاد تنكير كلمة ﴿حَيَّةٌ﴾ معنى التَّعظيم؛ أي: انقلبت العصا حيَّةً عظيمة جدًّا[4]، فرأى موسى عليه السلام أمرًا فظيعًا لم يَرَ مثلَه قطُّ؛ فلا جرم ولَّى مُدبرًا لمَّا رآها ولم يُعَقِّب، وامتلأ مِن هولها رعبًا[5].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

كانت العصا حيَّةً في مناجاة موسى، وثعبانًا في دعوة فرعون ومحاجَّته وترهيبه

أخبر اللهُ تعالى عن تحوّل عصا موسى عليه السلام هنا بقوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، وأمَّا في سورتي الأعراف والشّعراء فقال:

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 323.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 156.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 27.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 296.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 107، والشعراء: 32]، وفي سورتي النّمل والقصص: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النّمل: 10، القصص: 31]، والعصا التي ألقاها موسى عليه السلام إنّما كانت واحدةً، وكان إلقاؤها مَرَّةً كذلك، فما وجه اختلاف الإخبار عنها؟[1].

والجواب عن ذلك: أنَّ الحيَّة اسم يصدُق على الصَّغير والكبير، والذَّكر والأُنثى منَ الثّعابين، وأمَّا الثُّعبان فهو العظيمُ منَ الحيَّات، وأمَّا الجانُّ فهو الدَّقيق منها، وقدِ انقلبت العصا حين ألقاها موسى عليه السلام ثعبانًا، وهو العظيم منَ الحيَّات كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 107، الشعراء: 32]، وتشبيهها بالجانِّ، وهو الدّقيق منها في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: 10، القصص: 31] من حيثُ الجَلادة وسرعةُ الحركة، لا من حيثُ صغرُ الجثَّة، فلا منافاة بينهما، وعبِّر عنها بالاسم العامِّ للحالين وهو الحيَّة[2]، وقيل: الجانُّ عبارة عنِ ابتداء حالها، فإنَّها كانت حيَّة على قدر العصا، ثمَّ كانت تتورَّم وتنتفخ حتَّى صارت ثعبانًا، والثُّعبان: عبارةٌ عنِ انتهاء حالها، وقيل: إنَّها كانت في عِظَم الثُّعبان وسرعة الجانِّ[3]، وأمَّا عن سرِّ إيثار التَّعبير عن انقلاب العصا بالحيَّة في آية [طه: 20]، والتَّعبير عن ذلك بالثُّعبان في آيتي [الأعراف: 107، والشعراء: 32]: فهو أنَّ السّياق في سورة طه كان يحكي ما حدث أثناءَ مناجاة اللّه تعالى نبيَّه موسى عليه السلام، وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي يرى فيها موسى عليه السلام عصاه تنقلب إلى حيَّة، وقد جمعت بين عِظَم الحجم وخِفَّة الحركة، فعُبِّر بالحيَّة ليجمعَ المعنيين.

وأمَّا سياق آيتي الأعراف والشُّعراء فكان يقصُّ ما حدث في المناظرة التي جرت بين موسى عليه السلام وفرعون، فكان الأنسب أن يعبَّر بأعظم حالات الحيَّة، وهو الثُّعبان الذي هو أعظم الحيَّات؛ وذلك لإثبات المعجزة، وإدخال الرَّهبة، ونفي السِّحر، وقد زاد ذلك بوصف الثُّعبان بالمُبين، أي: ثعبان بيِّن الثُّعبانيَّة، كاملُ الحياة، لا تمويه فيه ولا تخييل، فكان كلُّ لفظ مناسبًا لسياقه تمامَ المناسبة.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 156.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 269.

نُكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَسۡعَىٰ﴾ بعد الماضي ﴿فَأَلۡقَىٰهَا﴾:

لم تكن الحيَّة تخييلًا ولا سِحرًا، بل حقيقةً تسطع كالشَّمس ظُهرًا

وُصِفت الحَيَّةُ بقوله تعالى: ﴿تَسۡعَىٰ﴾؛ لإظهار أنَّ الحياة فيها كانت كاملةً بالمشي الشَّديد، والسَّعي: المشي الذي فيه شِدَّة[1]، فهي حيَّةٌ تسعى، ليست جامدةً ميِّتة[2]، وفي هذا الوصف إزالةٌ لوهم يمكن وجودُه، وهو أنْ يُظنَّ أنَّها تخييلٌ لا حقيقة، فكونها ﴿تَسۡعَىٰ﴾ يزيلُ هذا الوهمَ[3]، وفي التَّعبير بالمضارع إفادةٌ لمعنى التَّجدُّد الذي يناسب الحركة المُتجدِّدة في الحيَّة، واستحضارٌ لصورة حركتها، وكأنَّها تتحرَّك الآن، وتراها العينان.

علَّة فصل قوله: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾ عن سابقه:

من شأن الاستئناف البيانيِّ أن يُفصَل عن سابقه

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾ عن سابقه لأنَّه استئناف بيانيٌّ[4]، وذلك أنَّه لمَّا كان انقلابُ العصا حيَّةً أمرًا مخيفًا، استشرفَ السَّامعُ إلى ما يكون مِن حال موسى عليه السلام عند مِثْلِ هذا بعدَ ذلك، فكأنَّه سأل: وماذا كان بعدَ ذلك؟ فاستأنف إخبارَه بقوله: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾[5]، ويضاف إلى ذلك أنَّ فعل: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾ قد أُعيدَ بدون عطف؛ لوقوعه في سياق المحاورة[6]؛ إذ مِن شأن المحاوراتِ أن يستشرفَ السَّامِعُ ما قالَه كلٌّ منَ المتحاورَيْن ردًّا على الآخر.

دلالة الأمر في قوله: ﴿خُذۡهَا﴾:

أراد الله تعالى أن يدرِّب موسى في المناجاة؛ كي لا يخافَ عند فرعون وملئِه الطُّغاة

الأمر في قوله تعالى: ﴿خُذۡهَا﴾ على بابه، إذ هو طلب بالفعلِ صادرٌ منَ الأعلى إلى الأدنى، وقد سيقت جملة الأمر لتعليل وجوبِ الامتثال له وعدمِ الخوف؛ أي: خذها، ولا تخف منها، فإنَّ هذه الحيَّةَ سنرجعُها عصًا كما كانت من قبل[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/ 9253.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 504.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492، والبروسويّ، روح البيان: 5/ 376.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 97.

علّة وصل قوله: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ بسابقه:

ما أحلمَ اللهَ في تطمين قلب الكليم، وإذهابِ خوفه العظيم

في عطف النَّهي على الأمر إشعارٌ بأنَّ عدم النَّهي عنه مقصودٌ لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط[1]، فما كان لموسى ﷺ - وهو مضطرب بسبب المفاجأة لهذا الانقلاب - أن يمدَّ يدَه إليها ليأخذها إلَّا بعد الاطمئنان وقرارِ النَّفس؛ ولذا قرن ﷻ الأمرَ بأخذها بالنَّهي عنِ الخوف؛ لتقرَّ نفسُه وتطمئنَّ، وبيَّن له أنَّ ما أزعجك منَ الانقلاب زائل[2].

معنى ﴿وَلَا﴾ ودلالتها في قوله: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾:

ليس القصدُ التَّخويف، بل التَّعليم والتَّعريف

﴿وَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ هي النَّاهية الجازمة[3]، والنَّهي فيها على حقيقته، وقد سيقت جملةُ النَّهي لبيان العلَّة منِ امتثال النَّهي؛ أي: ليس القصد تخويفَك، بل إظهارُ ما فيها منِ استعدادِ قبول الحياة، ومشاهدةُ معجزةٍ، وبرهانٌ لك[4]، وكأنَّه ضَمَّن صيغةَ التَّكليفِ صيغةَ التَّكوين[5].

بلاغة الحذف في الآية بعدم ذِكْر خوفِ موسى ﷺ بعد إلقائه العصا:

كان الخوف علامةَ صدقٍ، وأمارةَ حقّ

لم يُذْكَر خوفُ موسى ﷺ في هذه السّورة كما ذُكِر في سورة [القصص: 31] في قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، ولكنَّ قولَه سبحانه هاهنا: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ يدلُّ على خوفه ﷺ[6]، فهو إيجازٌ بالحذف؛ وذلك أنَّ موسى ﷺ أوجسَ في نفسه خيفةً؛ أي: لحِقَه ما يلحق البشرَ[7]، فإنَّ البشر بمقتضى طبعِه يخاف عند مشاهدة مثلِ ذلك، وهو لا ينافي جلالةَ القدرِ[8]، وذلك الخوفُ من أقوى الدَّلائل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4715.
(3) محمود صافي، الجدول: 8/ 359، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل: 7/ 86.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 123.
(5) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 426.
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 382.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 190، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492.

على صدقه في النُّبوَّة؛ لأنَّ السَّاحر يعلم أنَّ الذي أتى به تمويهٌ، فلا يخافه البتَّة[1].

علَّة فصل قوله: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ عن سابقه:

فُصِل قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ عن سابقه باعتباره استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن سؤال مُقَدَّر يطرأ في ذهن السَّامع بعد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾، فكأنَّه قيل: وكيف يأخذها ولا يخاف وهي حيَّة عظيمة تسعى؟ فكان الجواب معلِّلًا له النَّهي عن الخوف بقوله سبحانه: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾[2]، وهو مع كونه استئنافًا مسوقًا لتعليل الامتثال بالأمر والنَّهي، فإنَّ إعادتَها إلى ما كانت عليه - مِن موجبات أخذها وعدمِ الخوف منها - عِدَةٌ كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده ﷺ، وإيذانٌ بكونها مسخَّرةً له ﷺ؛ ليكون على طمأنينة من أمره، ولا يعتريه شائبةُ تَزلزُلٍ عند محاجَّة فرعون[3].

وعد الله تعالى بالإعادة، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد

دلالة التَّعبير بحرف التَّسويف في قوله: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾:

يفيد حرفُ التَّسويف بيان أنَّ الفعل المقرونَ به سيقع في المستقبل - قريبًا أو بعيدًا -، والمستقبل هاهنا هو ما سيحدث بعد تناول موسى ﷺ للحيَّة، فدلَّ النّظم القرآني على أنَّ إعادة الحيَّة إلى العصا تالٍ لتناول موسى ﷺ إيَّاها، وليس سابقًا له، وهذا أقرب للكرامة لأنَّه كما كان انقلابُ العصا حيَّةً معجزةً، فكذلك إدخالُ يده ﷺ في فمها من غير ضرر معجزةٌ، وانقلابُها خشبًا معجزٌ آخر، فيكون فيه توالي المعجزات، فيكون أقوى في الدّلالة[4].

توالت المعجزات للكليم، تثبيتًا من الله العظيم

دلالة التَّعبير بالإعادة ﴿سَنُعِيدُهَا﴾:

عبّر بالإعادة في قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ للدّلالة

ما أعظمَ قدرةَ الله تعالى على الخَلْق والإعادة

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 27.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 11.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 27.

عن ردِّ الحيَّة إلى سابق هيئتها إذ كانت عصا، ويُلمَح في الإعادة معنى التَّكرير والاستمرار[1]، وهذا يُفيد أنَّ هذه الآيةَ المُبهرَة المعجزةَ لم تحدث مرَّةً واحدة فقط، بل إنَّها ستتكرَّر بتكرُّر الأمر الإلهيِّ بإلقائها، فما أعظمَ قدرةَ اللّٰه تعالى!

سِرّ إسناد الفعل إلى نون العظمة في قوله: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾:

آيـــات الـلـه الـعـظـيـم توجِب الإيمانَ والتَّعظيم

أُسنِد الفعل ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ لنون العَظَمة؛ لأنَّه دالٌّ على أمر عظيم منَ الخَلْق والتَّكوين والإعادة من حال إلى حال؛ ومن هنا ناسَب أن يُعبَّر عنها بالنّون الدَّالَّة على العَظَمة؛ أي: سنُعيدها بعظمتنا عند أخذك لها، بوعدٍ لا خُلْفَ فيه[2].

نُكْتَةُ تعديةِ الفعلِ بنفسه دونَ تعديته بالحرف (إلى):

قـــدرة الـلـه واضـحـة جليَّة في سرعة إعادة الـعـصـا بـعـد انقلابها حيَّة

حرف الجَرّ (إلى) موضوع لانتهاء الغاية، وهذا المعنى فيه دلالةٌ على وجود سبيل مسلوكة، ماديَّةٍ أو معنويَّة، ويقع ما دخلت عليه (إلى) في نهايتها، فمتى نُزِع هذا الحرفُ دلَّ ذلك على اختصار تلك السّبيل اختصارًا يوحي بعدم وجودها، ودلَّ كذلك على تحقُّق هذه الغاية بلا جهد وبلا وقت، فلو كان النَّظم: (سنعيدها إلى سيرتها) لكان دلَّ على أنَّ إعادةَ الحيَّة إلى سابق هيئتها - إذ كانت عصا - سيستغرق وقتًا، أمَّا إفضاءُ الفعل إلى مفعوله مباشرةً فقدِ اختصرَ كلَّ هذا الوقت اختصارًا، فكما انقلبت العصا حيَّةً في الحال، وهو ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، كذلك إعادتُها عصًا بعد انقلابها حيَّة كان سريعًا كذلك، فلم يُعبَّر عنه بـ (إلى)، بل بالإفضاء المباشَر إلى الفعل ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾، هذا إلى جانب ما في نزع الخافض منَ الإيجاز بتقليل اللَّفظ وتكثير المعنى، وهذا ما يحقِّقه هذا الأسلوب بالاستغناء عنِ الفضول واستثمارِ أقلِّ ما يمكن منَ الألفاظ لأداء المعنى المراد[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عود).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(3) يوسف الأنصاريّ، من أسرار نزع الخافض في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى: ج16، ع28، ص: 741.

دلالة التَّعبير بالسّيرة من حيثُ المادَّةُ والصّيغة:

قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: سنعيدها في طريقتها وهيئتها الأولى؛ أي: في حال ما كانت عصا[1]، والتَّعبير بها خصوصًا دون غيرها من مرادفاتها للدّلالة على ما يشبه العادةَ؛ أي: الحالةَ التي اعتدتَها يا موسى من عصاتك حيثُ تتوكَّأُ عليها، وتهشُّ بها على غنمك.

الله القدير ذو الجلال يُبدِّل الأشياء من هيئة إلى هيئة، ومن حال إلى حال

توجيه نصب كلمة ﴿سِيرَتَهَا﴾ وثراء المعنى:

في نصب كلمة (سيرة) أوجه[2]؛ **أحدها:** بنزع الخافض؛ يعني: (إلى سيرتها)، فلمَّا نُزِع الخافض أفضى الفعل إلى مفعوله فنصبَه، **وثانيها:** أن يكون ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ مستقلًّا بنفسه غيرَ متعلِّق بـ ﴿سِيرَتَهَا﴾، بمعنى أنَّها كانت أوَّلًا عصا، فصارت حيَّة، فسنجعلها عصًا كما كانت، فنصب ﴿سِيرَتَهَا﴾ بفعل مضمَر؛ أي: (تسير سيرتَها الأولى)؛ يعني: سنعيدها سائرةً بسيرتها الأولى حيثُ كنتَ تتوكَّأ عليها ولكَ فيها المآرب التي عرَفْتَها، **وثالثها:** أن تكون منصوبةً على الظَّرف؛ أي: (في سيرتها)؛ أي: طريقتها، **ورابعها:** أنَّها منصوبة على أنَّها بدل منَ (الهاء) في ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ بدلُ اشتمال؛ لأنَّ السّيرةَ الصِّفةُ؛ أي: سنعيدها صفتَها وشكلَها.

تتعدَّد الأوجه الإعرابيَّة بين الحاليَّة والظَّرفيَّة ونزع الخافض والبدليَّة

سرّ وصف السّيرة بـ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾:

لَمَّا أُمِر موسى عليه السلام بقبض الحيَّة قبضَها فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يدُه في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بينَ الشُّعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: إلى حالها التي تعرِف قبلَ ذلك[3]، فهذه آية بيِّنة على أنَّ الذي يخاطبك

أعاد الله تعالى إلى موسى عصاه، لتكونَ حجَّةً على مَن كفر بالله وعصاه

(1) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 58، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 493.
(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 58، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 28، والعكبريّ، التّبيان: 2/ 889.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 280.

هو ربُّك الذي له الأسماء الحسنى، فنزلت عليه السَّكينةُ، وبلغ من طمأنينته أن أدخل يدَه في فمها وأخذَ بلحيتها، فإذا هي عصاه، ويدُه بين شُعبتيها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلقاء والقذف والرَّمي:

القذف يكون بشدَّة وسُرعة، وفيه معنى البُعد، ويكون بدون معرفةِ المسافة التي يصل إليها، أو المكانِ الذي يصل إليه، أمَّا الإلقاء فيكون بخِفَّةٍ وتمهُّل[2]، وهو طرح الشّيء حيثُ تلقاه، أي: تراه[3]، وأمَّا الرَّمي فتُعرَف فيه المسافة والمكان الذي يُرمَى إليه[4].

الأخذ والتّناول والالتقاط:

الأخـــذ أعـــمُّ مـــنَ الـتّـنـاول والالتقاط

التّناول أخذُ الشّيء للنّفس خاصّة؛ فلا يقال: تناولت الشّيء لِزَيد، كما يقال: أخذته لزيد، والتّناول يقتضي أخذَ شيء يُستعمَل في أمر من الأمور[5]، وهو كذلك أخذُ القليل المقصود إليه؛ ولهذا لا يقال: تناولت كذا من غير قصدٍ إليه، ويقال: أخذتُه من غير قصد[6]، أمَّا الالتقاط: فهو أخذُ شيءٍ عُثِر عليه من غير طلبٍ له ولا احتساب[7]، ممَّا يدلّ على أنَّ الأخذَ أعمُّ منَ التّناول[8] والالتقاط.

الإعادة والرَّدّ:

في الإعادة تكرير وتـجـديـد، وفي الرَّدّ عكس اتّجاه

ممَّا يدلُّ عليه جذرُ الإعادة التّثنيةُ في الأمر[9]؛ لذا فإنَّ إعادة الشّيء إلى حالٍ تقتضي أن تكون إلى حالٍ كان عليها أوَّلًا، ويدور

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 7/ 121.
(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 7/ 121.
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 145.
(6) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 145.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزابادي، البصائر، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقط).
(8) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 145.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عود).

معناه المحوريّ حول تكرير الشّيء وتجديده، أمَّا الرّدُّ فجذرُه أصلٌ واحدٌ، وهو رَجعُ الشَّيء، ومعناه المحوريّ يدور حولَ صدّ استرسال الشّيء وعكسُ اتّجاهه، ومنه: ردَّ الشّيءَ: رجعَه، أي: بعدما ذهب مسترسِلًا[1].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»